مختـــــارات مـن
المجلـة الدوليــة
للصلـــيب الأحمـــر

المجلد 94، العدد 888، شتاء 2012

الرعاية الإنسانية وأمور بسيطة في أماكن نزع منها الطابع الإنساني

بول بوفييه*

بول بوفييه هو كبير المستشارين الطبيين للجنة الدولية للصليب الأحمر في جنيف بسويسرا، وهو متخصص في طب الأطفال والصحة العامة. تتضمن مجالات اهتماماته الخاصة ما يعانيه ضحايا العنف من ضعف وصدمة وكيفية تجاوزهم لذلك. قام بول بوفييه منذ عام 1979 بزيارة العديد من المُعتقلات في مختلف القارات أو العمل فيها كطبيب. يُعنى نشاطه الحالي في إطار عمله مع اللجنة الدولية للصليب الأحمر بمعالجة المشكلات الصحية ومبادئ آداب المهنة المرتبطة بالعمل الإنساني وتدريب المتخصصين المعنيين بالعمل الإنساني على الاستجابة لمشكلات الصحة العامة في الأزمات والنزاع المسلح.

الكلمات الرئيسية: اللجنة الدولية للصليب الأحمر، العمل الإنساني، القيم الإنسانية، مندوبو اللجنة الدولية للصليب الأحمر، زيارات المعتقلات، المقابلات على انفراد، سوء المعاملة، الكرامة الإنسانية، السرية، الصدمة، القدرة على الصمود، الرعاية.

: : : : : :

ما هو الهدف من العمل الإنساني؟

Ce n'était rien qu'un peu de pain,
Mais il m'avait chauffé le corps,
Et dans mon âme il brûle encore,
À la manière d'un grand festin

لم تكن سوى كسرة خبز
إلا أنها غمرت جسدي بالدفء

وما زالت تبعث بالحرارة في روحي
كما لو كانت وليمة شهية

جورج براسينس، *Chanson pour l'Auvergnat*

يعرض هذا المقال ملاحظات مختصرة حول أمور بسيطة للغاية؛ مجرد أشياء بسيطة مثل فنجان من القهوة أو صور لأزهار وحيوانات ومناظر طبيعية، أو بضع قطرات من العطر. إنها حقًا أشياء غاية في البساطة والتفاهة لدرجة أنه نادرًا ما يرد ذكرها في التقارير أو الروايات أو المقالات الإعلامية التي تتناول الأعمال الإنسانية الميدانية. ومع ذلك، قد تمثل تلك الأمور البسيطة أحيانًا عنصرًا جوهريًا، بل وربما أكثرها أهمية، من بين أنشطة موظفي اللجنة الدولية للصليب الأحمر العاملين في الميدان وسط النزاعات المسلحة والعنف المحتدم.

لقد زرت العديد من المُعتقلات في مختلف القارات ضمن إطار مهامي كطبيب ومندوب طبي للجنة الدولية للصليب الأحمر. فتعمل اللجنة الدولية للصليب الأحمر عند زيارتها للمعتقلات، كمنظمة غير متحيزة ومستقلة ومحايدة، وتُجري مقابلات على انفراد وسرية مع المحتجزين، إلى جانب إجراء حوار سري مع سلطات الاحتجاز.[1] تعد السرية عنصرًا جوهريًا في المقابلات التي تجريها لحماية المحتجزين ولبناء علاقة من الثقة. ويتناول الحوار السري مع السلطات النتائج والتوصيات العامة استنادًا إلى ما لُوحظ أثناء الزيارات وعلى المواضيع التي أثارها المحتجزون أنفسهم، مع الحفاظ في الوقت ذاته على سرية مصدر المعلومات. ويتمثل الهدف من مثل تلك الزيارات في تحسين أوضاع الاحتجاز والمعاملة التي يلقاها المحتجزون وكذلك لمنع المُعاملة السيئة أو عدم تكرارها وتعزيز المعاملة والعلاقات الإنسانية داخل مكان الاحتجاز. وقد زار مندوبو اللجنة الدولية للصليب الأحمر في عام 2012 ما يقرب من 540 ألف محتجز في 97 بلدًا وإقليمًا، حيث تمت زيارة أكثر من 26 ألفًا منهم من خلال مقابلات على انفراد. وفي العديد من الحالات، كان مندوبو اللجنة الدولية للصليب الأحمر هم الزوار الخارجيون الوحيدون للمحتجزين.

تُلقي هذه الملاحظات الضوء على الزيارات التي تمت إلى أشخاص محتجزين. نظرًا لطابع السرية الذي تتسم به أنشطة اللجنة الدولية للصليب الأحمر، لن يتم الإفصاح عن أية أماكن أو تواريخ أو أشخاص. بيد أن بوسع القارئ تخيل أن أحداثًا مشابهة تقع في سياقات أخرى مختلفة.

1 اللجنة الدولية للصليب الأحمر، «زيارة المحتجزين»، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، جنيف، 2013، متاحة على http://www.icrc.org/eng/what-we-do/visitingdetainees/ (آخر زيارة 22 يونيو/ حزيران 2013). انظر كذلك مطوية «كفالة احترام حياة وكرامة الأشخاص المحرومين من حريتهم»، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، جنيف، 2013، متاحة على
http://www.icrc.org/eng/resources/documents/publication/p0543.htm
(آخر زيارة فبراير/ شباط 2013).

ما الفائدة من فنجان قهوة؟

بزغت تلك الفكرة من خلال سؤالين مربكين طرحهما الزملاء، ولم يكن من السهل الإجابة عنهما. ومع ذلك، ساعدنا هذان السؤالان على التوصل إلى جوهر وحدود العمل الإنساني في حالات العنف، وجعلانا أقرب ما نكون إلى لب الرعاية الإنسانية ومبادئ آداب المهنة.

جاء السؤال الأول في صيغة طلب من خبير شهير في علم النفس الإيجابي والصمود النفسي. حيث كان يبحث عن دراسة أجرتها اللجنة الدولية منذ عدة سنوات والتي، كما يتذكرها، أعرب من خلالها الأشخاص الذين تمت إغاثتهم عن الأمور التي ساعدتهم أكثر وأشعرتهم بتحسن. وهو هنا يتذكر أن إجاباتهم كثيرًا ما تضمنت أمورًا بسيطة وإيماءات توحي بالعطف، مثل تقديم فنجان من القهوة إليهم.

ويمكنني بالتأكيد تقدير قيمة فنجان من القهوة من ناحية، كما أنني أدركت أنه حينما يأتي أحد مندوبي اللجنة الدولية لزيارة أحد المحتجزين لإجراء حوار خاص معه والإصغاء إليه ومشاركته فنجانًا من الشاي أو القهوة أو عصير البرتقال أو الكعك، يكون ذلك أحيانًا بمثابة حدث استثنائي في حياة المحتجز.ومن ناحية أخرى، أجد أنه من المحرج أن أتحدث عن التجارب الإيجابية ومدى الصمود في مواقف يصارع فيها الأشخاص فقط للبقاء على قيد الحياة في ظل أوضاع مروعة، حيث يكونون أحيانًا ضحايا لمعاملة غير إنسانية ومهينة أو لعنف مفرط. وكانت أغلب المقابلات الخاصة التي أجريناها في زيارات المحتجزين تدور حول الحياة قيد الاحتجاز والانفصال عن الأحباء، والمشقات والتجارب المخيفة التي يمرون بها وما يكتنفهم من حزن ومعاناة وآلام؛ ولأنني طبيب، كثيرًا ما كانت تتناول أحاديثنا اعتلال الصحة والأمراض والأمراض المزمنة والاضطرابات النفسية والعقلية التي عادة ما ترتبط بالاحتجاز.

ويمكن بالتأكيد أن يحظى فنجان من القهوة بتقدير كبير في ظل تلك الظروف؛ ومع ذلك، شعرت أن المُغالاة في تقدير قيمته تُعد مخاطرة في حد ذاتها، حيث تتجاهل معاناة المحتجز والصدمة التي قد يمر بها. فما هي القيمة الحقيقية للزيارة في مثل تلك الحالات؟ هل يمكن لفنجان من القهوة يقدم مصحوبًا بمشاعر التعاطف أن يغير شيئًا فعلًا؟

يصور "غويا" في لوحة مميزة من سلسلة "كوارث الحرب"، امرأة تقدم قدحًا من الحساء لشخص يتضور جوعًا كان على شفا الموت، إبان المجاعة التي ضربت مدريد عام 1810 أثناء حرب الاستقلال الإسبانية.[2] إنه مشهد يعبر عن الإنسانية الخالصة. إلا أن "غويا" شكك في القدرة المحدودة والمثيرة للسخرية لذلك المقدار الضئيل تحت عنوان: "ما الفائدة من قدح حساء؟"

2 Paul Bouvier, ‘ “Yo lo vi” – Goya witnessing the disasters of war: an appeal to the sentiment of humanity’, in *International Review of the Red Cross*, Vol. 93, No. 884, December 2011, pp. 1107–1133.

هل هذا عمل إنساني؟ ما تتسم به زيارات أماكن الاحتجاز من عجز

السؤال الآخر أثاره منذ أشهر قليلة أحد الأطباء العاملين مع اللجنة الدولية في مراكز الاحتجاز. عاد هذا الزميل مؤخرًا من إحدى مناطق النزاع حيث يعد التعذيب ممارسة شائعة وممتدة لفترات طويلة، فكان المحتجزون يتعرضون للضرب على نحو متكرر ويلقون ألوانًا بشعة من التعذيب. توجهت اللجنة الدولية لزيارة أماكن الاحتجاز تلك للتحدث إلى المحتجزين وجمع أدلة تعرضهم للإيذاء والمعاملة السيئة، ومن ثم إبلاغ السلطات بتلك الوقائع أملًا في تحقيق بعض التحسن والتغيير. إلا أنه لم يتحقق الكثير من التقدم آنذاك، ولم يكن بوسع المندوبين سوى أن يشهدوا خطورة المعاملة السيئة التي يتعرض لها المحتجزون وحدتها وتكرارها. ولقد كان زميلنا شاهدًا على العواقب الوخيمة التي تترتب على المعاملة السيئة. شرعت اللجنة الدولية في توفير الدعم النفسي والاجتماعي اللازم للمحتجزين السابقين بعد إطلاق سراحهم، إلى جانب الإرشاد النفسي ورعاية الصحة العقلية إن لزم الأمر. إلا أن حجم الاحتياجات كان هائلًا في حقيقة الأمر، حيث مئات الأشخاص الذين يمكنهم الاستفادة من مثل ذلك التدخل، إلا أن قدرتنا على تقديم الخدمات كانت محدودة. هل كان الأمر عادلًا بالنسبة إلى هؤلاء الذين لم يتم إدراجهم في البرنامج؟ ثم بدأت عدة أسئلة أخرى أكثر أهمية تطرح نفسها: هل يجب على اللجنة الدولية مواصلة تلك الزيارات؟ وما هي قيمتها في ظل استمرار ممارسات التعذيب والمعاملة السيئة؟ هل هذا منطقي؟ وتساءل: 'هل هذا عمل إنساني ؟'

يتمثل الهدف من زيارات اللجنة الدولية إلى المحتجزين في ضمان تلقيهم لمعاملة إنسانية واحترام كرامتهم وتحسين أوضاعهم والحد من معاناتهم. وتدرك اللجنة الدولية من واقع خبرتها أن المثابرة أمر ضروري وأنه قد لا يتم إحراز أي تقدم إلا على المدى الطويل من خلال الحوار المحاط بالسرية مع السلطات، والذي يستند إلى وقائع ملموسة والتزام صارم بالقيم الإنسانية. وحتى تكون تلك الزيارات ذات مغزى، يجب أن يكون لها تأثيرها على أوضاع الاحتجاز، وينبغي أن يكون الحوار مع سلطات الاحتجاز حوارًا بناءً. وإذا لم تُستوفَ تلك الشروط، فقد تقرر اللجنة الدولية إيقاف تلك الزيارات وشجب الوضع القائم علنًا.[3] وهو ما يعد في واقع الأمر قرارًا يصعب اتخاذه، حيث سيؤدي في العديد من الحالات إلى حرمان المحتجزين من أي زائرين خارجيين، وهو ما من شأنه أن يزيد ما يعانونه من عزلة وتبعية وضعف.

لحظات من الإنسانية المشتركة

أعدت اللجنة الدولية منذ عدة سنوات فيلمًا[4] تحدث فيه محتجزون سابقون عن احتجازهم وعن زيارات اللجنة الدولية. يظهر هذا الفيلم ببساطة ما يشعرون به من معاناة وتعبيراتهم التي

3 اللجنة الدولية للصليب الأحمر، «احترام حياة المحتجزين وكرامتهم»، نظرة عامة، 29 أكتوبر/ تشرين الأول 2010، متاحة على:
http://www.icrc.org/eng/what-we-do/visiting-detainees/overview-visiting-detainees.htm
(آخر زيارة 22 يونيو/ حزيران 2013).

4 اللجنة الدولية للصليب الأحمر، «تذكر الصمت»، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، جنيف، 1993، أسطوانة فيديو مدمجة، 34 دقيقة.

تقطر أسى وألمًا ودموعًا عندما يتذكرون تلك الأوقات العصيبة التي قضوها قيد الاحتجاز. حاول البعض منهم الحديث عما لاقوه من عزلة ومعاملة سيئة – إلا أنهم فجأة التزموا الصمت. لم تسعفهم الكلمات للتعبير عما يجول بخاطرهم. حتى بعد انقضاء سنوات على وقوع تلك الأحداث، كان الحديث عنها أمرًا عسيرًا.

وتذكر بعض المحتجزين السابقين في سياق الفيلم زيارات مندوبي اللجنة الدولية وعلّقوا على مدى أهمية تلك الزيارات. وهو ما استدعى إلى ذاكرتي محادثات سرية أجريتها مع عدد من المحتجزين أثناء تناول فنجان من الشاي أو القهوة أو عصير البرتقال والكعك. وتحولت الزيارة إلى لقاء حقيقي في بعض الأحيان، حيث تحدثنا عن حياتنا وعائلاتنا، حول الطبيعة والفن والثقافة، حول المعتقدات والآمال، لكن كثيرًا ما كانت تتطرق أحاديثنا إلى أمور بسيطة، أشياء صغيرة نقابلها في حياتنا اليومية. وكانت تمر علينا أحيانًا لحظات من المرح حيث تعلو الضحكات على نحو غير متوقع في ظل تلك الوقائع المريرة. كانت هناك لحظات عاطفية ؛ لحظات من الإنسانية المشتركة.

لقطات من الأمل

لقد مررت بتجارب إنسانية مشابهة منذ عدة سنوات مضت إبان زيارات قمت بها إلى مكان احتجاز يتسم بالقسوة. فعلى الرغم من توافر الاحتياجات المادية الأساسية، مثل الطعام والماء والمأوى والخدمات الطبية، فإن المحتجزين عانوا من العزلة وعدم الحركة والحرمان من الممتلكات الشخصية وتوتر العلاقات مع الحراس وعدم اليقين من المصير الذي سيلاقونه، وهو ما كان له أعمق الأثر على صحتهم البدنية والعقلية والنفسية. وكما هي الحال في العديد من أماكن الاحتجاز، كان من ضمن الأنشطة المهمة التي تتولاها اللجنة الدولية توزيع وجمع أخبار عائلات المحتجزين من خلال رسائل الصليب الأحمر، من العائلات إلى أقاربها المحتجزين ومن المحتجزين إلى عائلاتهم.[5] وكان هناك نشاط آخر فريد من نوعه في هذا المكان بالتحديد. فلقد قام موظفو اللجنة الدولية كذلك بتوزيع صور لمناظر طبيعية أو حيوانات أو زهور. ووجدنا المحتجزين ينتقون أثناء الزيارات الصور التي يرغبونها من وسط مجموعة كبيرة قدمها إليهم مندوب اللجنة الدولية. كان هذا نشاطًا مميزًا، حيث تم توزيع حوالي 20 صورة لكل محتجز في كل زيارة. كان هناك مجال اختيار واسع من بين الصور المطبوعة للزهور أو الطيور أو الحيوانات البرية أو المدن والمباني الدينية ومشاهد غروب الشمس الخلابة وسط مناظر طبيعية شاسعة.

5 رسائل الصليب الأحمر (RCM) عبارة عن خطابات مفتوحة تحمل أخبارًا عائلية أو خاصة فقط، ويتم جمعها وتسليمها بصفة شخصية بواسطة متطوعين من الجمعية الوطنية للصليب الأحمر أو الهلال الأحمر، أو بواسطة موظفي اللجنة الدولية للصليب الأحمر. تحتوي رسائل الصليب الأحمر على الاسم والعنوان الكامل للمرسل والمرسل إليه. تقوم السلطات بقراءتها قبل تسليمها في أماكن الاحتجاز. انظر اللجنة الدولية للصليب الأحمر، 'Restoring contact'، والمتاحة على:
http://familylinks.icrc.org/en/Pages/HowWeWork/restoring-contact.aspx
(آخر زيارة 22 يونيو/ تموز 2013).

ما الذي فعله المحتجزون بتلك الصور؟ أولًا، قام الكثير منهم بتعليقها على جدران زنازينهم لتذكرهم بوجود ذلك الجمال في العالم: هناك أزهار جميلة وحيوانات قوية وطيور منطلقة تطير بحرية ومدن هائلة وأماكن للعبادة والحياة الدينية – وغروب شمس ساحر. ثانيًا، أرسل العديد منهم الصور إلى أقاربهم، وكثيرًا ما كانوا يفعلون ذلك بدون أية تعليقات كما لو كان لا حاجة للكلمات، أو كما لو لم يكن هناك كلمات بوسعها وصف ما يعبرون عنه؛ كما لو كانوا يخبرون أحباءهم: "أنا هنا، وأشارككم تلك الصورة؛ أهدي إليكم جمال الطبيعة والمدن؛ لقد اهتز وجداني أمام سحر وجمال غروب الشمس. أنا إنسان".

كان هؤلاء المحتجزون يعبرون عن إنسانيتهم من خلال تلك الطريقة البسيطة. لقد تحملوا الحرب وسوء المعاملة والفصل والعزلة وأوضاع الاحتجاز القاسية. وتمت معاملتهم كما لو كانوا من غير البشر، كما لو كانوا خارج نطاق الإنسانية. وحاولوا ببساطة، من خلال تلك الصور، التعبير عن أحلامهم وآمالهم وربما كذلك عن انتمائهم للبشرية. إن إهداءهم تلك الصور إلى أقاربهم كان تعبيرًا عن الحب والإنسانية المشتركة.

بدا أن بعض موظفي اللجنة الدولية لديهم مهارات خاصة في تكوين العلاقات الإنسانية وحساسية إزاء ذلك البعد الإنساني في نشاطهم. على سبيل المثال، لعبت النساء المشاركات في فريق الزيارة أدوارًا حيوية: فقد طورن هذا النشاط حيث بدأن انتقاء الصور من على الإنترنت وطباعتها في شكل بطاقات بريدية ونظمن توزيعها على المحتجزين. ولقد أظهر بعض مندوبي اللجنة الدولية الكثير من التفاني في توصيل تلك الصور إلى المحتجزين ومساعدتهم على اختيار أجملها لإرسالها إلى عائلاتهم، ومناقشتهم في اختياراتهم وكذلك في مدلول الصور بالنسبة لهم. لقد كانت بالفعل لحظات ثمينة.

هدايا صغيرة وتقدير متبادل

استخدم بعض المحتجزين هذه الصور لغرض آخر: حيث كانوا يختارون إحدى الصور من مجموعتهم ويقدمونها إلى المندوب الزائر لهم أثناء الحوار على انفراد. وقد كان ذلك الشيء البسيط بمثابة هدية لا تقدر قيمتها بثمن خاصة في ظل سياق مجرد من أغلب الأشياء المادية. كان المحتجزون يعانون من ظروف احتجاز بالغة القسوة، فجاء تقديمهم تلك الصورة هدية إلى المندوب تعبيرًا عن إنسانيتهم واستعادة لكرامتهم. تلك الهدية الصغيرة التي بلا مقابل، من أكثر الأشخاص ضعفًا وحرمانًا، إنما تعبر عن إحساس من التقدير المتبادل كبشر، تقدير إنسانيتنا المشتركة.[6]

يعد تقديم الهدايا من المحتجزين إلى مندوبي اللجنة الدولية أمرًا شائعًا، وهو يحمل على الأرجح عدة معانٍ مختلفة. يدعو المحتجز مندوب اللجنة الدولية إلى تناول فنجان من الشاي أو مشروب بارد أو بعض الطعام إن أمكن ذلك. وهو من خلال ذلك العمل البسيط يقيم علاقة يكون فيها الزائر بمثابة الضيف، ومن ثم يستعيد المحتجز بعض الشعور بالمساواة في علاقته بالعامل في المجال الإنساني. يعتبر العديد من المندوبين في واقع الأمر ذوي الخبرة أنفسهم

6 Paul Ricoeur, 'L'échange des dons et la reconnaissance mutuelle', in *Parcours de la reconnaissance*, Stock, Paris, 2004, pp. 342 and 352; Paul Ricoeur, *The Course of Recognition*, Harvard University Press, Cambridge MA, 2005

زائرين للمحتجزين ويبدون نفس الكياسة والاحترام الذي قد يتوقعونه من زائر إلى منزلهم. إن تقديم بعض الشراب أو الطعام لهو بمثابة دعوة للقاء حقيقي، لقضاء لحظة من الإنسانية.

ويقوم بعض المحتجزين على نحو متكرر بتقديم لوحة مرسومة أو قصيدة أو إحدى المشغولات اليدوية. وهو ما لا يعتبر استجابة لأي التزام أخلاقي لرد الزيارة بهدية في المقابل، بل ليس إلا تعبيرًا عن الامتنان ورغبة المحتجز في النظر إليه كإنسان له هوية وتاريخ ومشاعر ومآسٍ وقدرات.

بضع قطرات من العطر ومن الكرامة

أثناء زيارة قامت بها إحدى الزميلات من مندوبي اللجنة الدولية إلى أحد السجون، تلقت في يوم ما طلبًا غريبًا، حيث طلب منها أحد المحتجزين أن تعاود زيارته في يوم آخر وتجلب له معها بعض العطر. شعرت المندوبة بالارتباك نظرًا لطبيعة الطلب وبسبب القواعد الأمنية المفروضة. وطلبت من أحد الزملاء الرجال في المساء القليل من ماء الكولونيا، وفي اليوم التالي توجهت لزيارة المحتجز وقدمت إليه بعض قطرات من العطر. قام المحتجز بنثر العطر على جسمه بسخاء وهو في منتهى السعادة؛ على وجهه وشعره وملابسه. أشرق وجه الرجل وجلس في مقعده ناظرًا لأعلى إليها وقال بامتنان: 'أتعرفين، اليوم، ولأول مرة منذ قدومي إلى هنا، تفوح مني رائحة عطرة. أشعر أنني إنسان.'

توجه عقب ذلك إلى الساحة لرؤية زملائه ومشاركتهم سعادته، حيث قام بحك ملابسه في ملابسهم ليشاركهم عطره. حينما التقينا بهم في وقت لاحق من ذات اليوم، جاءوا إلينا مبتهجين وهم يتفاخرون برائحتهم الطيبة. إنها ليست إلا بضع قطرات من العطر التي أعادت إليهم شعورهم بالكرامة الإنسانية.

الرعاية الإنسانية، من الصدمة إلى الصمود

كل ما سبق ذكره من أحداث صغيرة وأمور بسيطة تعبر عن بعض عناصر الرعاية الإنسانية وما تمثله من قيمة في أماكن الاحتجاز القاسية. ويمكن أن توفر تلك الرعاية نفحات من الإنسانية في بعض أماكن الاحتجاز التي نزع عنها الطابع الإنساني. لقد لعب إخصائيو الرعاية الصحية العاملون مع ضحايا الإيذاء والعنف المفرط أدوارًا رئيسية في سبيل الإقرار بالمعاناة العقلية المرتبطة بالعنف والأوضاع والمعاملة غير الإنسانية.

محتجز معتقل لدى السلطات الأفغانية، مارس/ آذار 2009. © CICR/VII/NACHTWEY, James

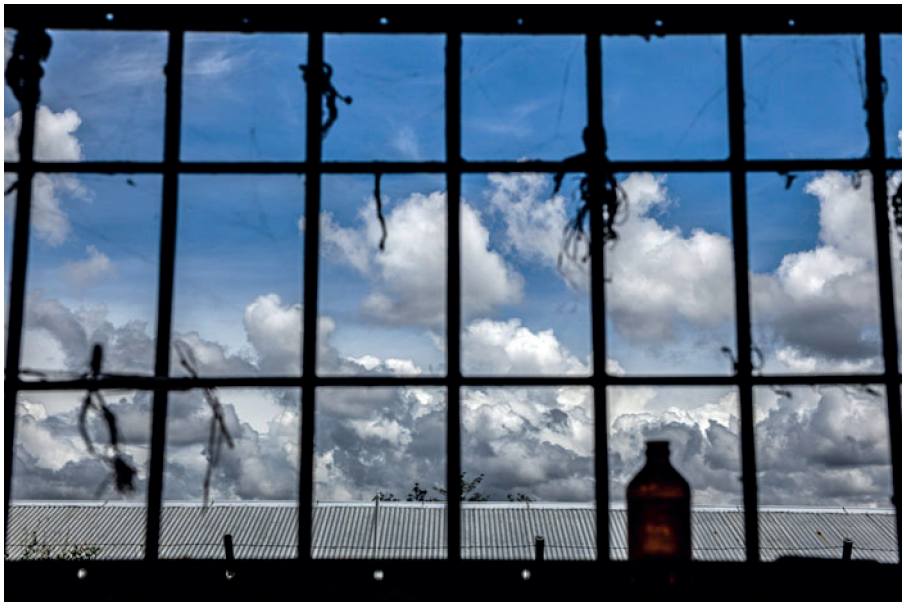

هايلاند الغربية، سجن بايسو، بابوا غينيا الجديدة، منظر من خارج قضبان النافذة. 4 مايو/ أيار 2012 © CICR/KOKIC, Marko

بوجومبورا، سجن مبيمبا. زيارة وكتابة رسائل الصليب الأحمر. 7 مايو/ أيار 2001 CICR/GASSMANN, Thierry ©

فنوم بينش، كمبوديا، سجن تي3-. زيارة إلى السجن ومقابلة مع المحتجزين. سبتمبر/ أيلول 1993 CICR/CORRIERAS, Serge ©

كنشاسا، مكتب الوكالة المركزية للبحث عن المفقودين. كتابة رسالة الصليب الأحمر. 7 أغسطس/ آب 2000
© CICR/DI SILVESTRO, Jean-Patrick

ليما، مركز تشوريوس شديد الحراسة لاحتجاز النساء. حديث بين مندوبة اللجنة الدولية للصليب الأحمر ومحتجزة مريضة داخل زنزانتها. مايو/ أيار 2007 © CICR/HEGER, Boris

لقد كشفوا الستار عن حقيقة الصدمة النفسية والاجتماعية وما يترتب عليها من عواقب. ومع ذلك، ما زال هناك طريق طويل ينبغي اجتيازه لفهم وتقدير الضرر الفادح الذي تخلفه النزاعات المسلحة والعنف المفرط والمعاملة غير الإنسانية والمهينة أو التعذيب على صحة الضحايا وكرامتهم، وهناك كذلك أمامنا طريق أطول لتعلم السبل الممكنة لمعاونة المحتجزين على التعافي مما مروا به من محن وإعادة بناء حياة إيجابية ذات معنى. ويجب أن نتحلى بالحكمة والتحفظ قبل أن نخلص إلى استنتاجات نهائية حول الدور الذي يمكن أن يؤديه اللقاء الإنساني مع هؤلاء الذين يعانون، ولا سيما في ظل سياقات تتسم بالعنف والتجريد من معاني الإنسانية.

ويسهل إنكار حقيقة العنف والإيذاء وما يترتب عليهما من عواقب، وهو ما يؤدي بدوره إلى عواقب وخيمة تدوم إلى الأبد على مصير أعداد لا تحصى من الأشخاص الذين يواجهون النزاعات المسلحة. ويدمر العنف المفرط كل معاني الإنسانية داخل الأشخاص الذين يتعرضون له بل ويجرد الضحايا من إنسانيتهم. وبالنسبة للعاملين في المجال الإنساني، يعد الالتقاء بأحد ضحايا العنف المفرط والإصغاء إلى معاناته تجربة مؤلمة. حيث يتأثر العاملون بحكايات العنف المفرط والتعذيب، وهم بذلك يدفعون ثمنًا عاطفيًا نظير تقديمهم يد العون لضحايا العنف. وهو ما دفع بريتشارد موليكا، الذي عمل مع العديد من ضحايا التعذيب، إلى أن يصف ذلك بأنه "ألم المعالج". ومن واقع خبرته، "أن تكون شاهدًا على العنف ذلك في حد ذاته تجربة مؤذية بالنسبة للشاهد كما هي بالنسبة لمن يتعرضون فعليًا لذلك العنف."[7] وينتج هذا التعرض للصدمة الثانوية، أو "الصدمة البديلة"، عن "الأثر التراكمي للعمل مع من تعرضوا فعليًا للصدمة، وهو ما ينعكس في صورة تداخل مع مشاعر الإخصائي وأطره المعرفية وذكرياته وتقديره لذاته وإحساسه بالأمان."[8] تم وصف تلك العواقب الفريدة للعمل مع حالات الصدمة للمرة الأولى لدى المعالجين النفسيين، ومؤخرًا لدى عائلات أسرى الحرب[9] والمترجمين العاملين مع ضحايا التعذيب[10] والمحامين الجنائيين الذين عملوا في حالات جنائية.[11]

يمكن أن يتأثر كذلك مندوبو اللجنة الدولية بأنشطتهم المرتبطة بضحايا العنف المفرط، كما يمكنهم أن يشهدوا قدرة بعض الضحايا على المقاومة والحفاظ على إنسانيتهم بالرغم مما يمرون به من تجارب تجردهم من معالم الإنسانية. إلى أي مدى تسهم زيارات اللجنة الدولية

7 Richard F. Mollica, He*aling Invisible Wounds: Paths to Hope and Recovery in a Violent World,* Harcourt Inc., Orlando FL, 2006, p. 31.

8 Pilar Hernández, David Gangsei and David Engstrom, ‘Vicarious resilience, a new concept in work with those who survive trauma’, in *Family Process*, Vol. 46, No. 2, June 2007, p. 231

9 Rachel Dekel and Zahava Solomon, ‘Secondary traumatization among wives of Israeli POWs: the role of POWs’ distress’, in *Social Psychiatry and Psychiatry Epidemiology*, Vol. 41, No. 1, 2006, pp. 27–33.

10 David W. Engstrom, Tova Roth and Jennie Hollis, ‘The use of interpreters by torture treatment providers’, in *Journal of Ethnicity and Cultural Diversity in Social Work*, Vol. 19, No. 1, January–March 2010, pp. 54–72.

11 Lila Petar Vrklevski and John Franklin, ‘Vicarious trauma: the impact on solicitors of exposure to traumatic material’, in *Traumatology*, Vol. 14, No. 1, March 2008, pp. 106–118.

في قدرة الضحايا على المقاومة والتكيف؟ هل تسهم تلك الزيارات على الأقل في تعزيز صمودهم؟ والأرجح أن تلك الزيارات تحقق ذلك بالفعل حينما تمثل فرصة لإجراء لقاء، للتمتع بلحظة من الإنسانية المشتركة.

كنا نناقش تلك القضايا ذات مرة في إحدى الجلسات التدريبية، حين قالت إحدى الزميلات، العاملة كطبيبة في أماكن الاحتجاز التي يُمارس فيها التعذيب على نحو شائع وممتد، إن الأمور تحدث بطريقة مختلفة. ويمكن أن يتأثر المختصون تأثرًا شديدًا في واقع الأمر بعملهم في أماكن الاحتجاز، ولكن لم يكن الأمر كما لو زاروا أحد المحتجزين ونجحوا في تعزيز قدرته على الصمود. واستطردت موضحة أنها في يوم من الأيام، أثناء مقابلتها على انفراد مع مجموعة من المحتجزين، أخذوا يروون لها أمورًا بشعة عما لاقوه من تعذيب ومعاناة وألم. وأثرت روايتهم في نفسها كثيرًا حتى بكت. وهو ما دفع المحتجزين إلى التحدث معها بلطف، موضحين لها كيف أنه بوسعهم سويًا التغلب على معاناتهم وتجاوزها. لقد كانوا يدعمون بعضهم، وصاروا الآن يدعمون المندوبة التي قامت بزيارتهم.

تعلمنا دروسًا مهمة من تلك الرواية. أولًا، كانت هذه المندوبة ناشطة جيدة في المجال الإنساني وأخصائية في الرعاية الصحية؛ وأتت دموعها لتعبر ببساطة عن إحساسها بالتعاطف والإنسانية أمام تلك الروايات التي تجردت من الإنسانية وأمام اكتشافها أنها مع كل ما مرت به من تجارب، لم تصبح متبلدة المشاعر إزاء معاناة الآخرين. ثانيًا، كان هذا الموقف بالنسبة إلى المحتجزين إشارة إلى التقائهم بإنسان حقيقي. فلقد وجدوا أنفسهم في موقف يحتم عليهم أن يقدموا إليها الدعم والنصيحة، مشاركين إياها تجاربهم.

تم وصف عملية التعلم الإيجابي من قبل المعالجين على أيدي مرضاهم في ما يتعلق بكيفية تجاوز المحن والشدائد، وأطلق عليها مصطلح "الصمود البديل"،[12] وهو قياس تمثيلي لمصطلح الصدمة البديلة الموصوفة في عمل المختصين العاملين مع ضحايا العنف المفرط. ويعرف الصمود البديل بأنه "عملية تأثر المختصين إيجابيًا بصمود عملائهم."[13] وهو ما يعد تطورًا مثيرًا للاهتمام في إدراكنا للصدمة والصمود. وهو يشير إلى أن علاقة الرعاية الهادفة تعد عملية انتقالية تبادلية. إن العنصر الجوهري للرعاية الإنسانية ربما يكمن في تلك العلاقة التي تنشأ بين الإخصائي والشخص الذي يقوم بزيارته، حينما يتحول الاجتماع إلى لقاء بين إنسانين. وخلال ذلك اللقاء، يأتي كل منهما كشخص له هويته الخاصة وتاريخه وقدراته ومواطن ضعفه. إن تحقيق الصمود بعد التعرض لعنف مفرط قد يكون بمثابة عملية من الإنسانية المتبادلة.

الرعاية الإنسانية في مواجهة العدوانية

تصف القصص الصغيرة الواردة أعلاه بعض المواقف التي قد تثمر فيها العلاقة بين العامل في المجال الإنساني والمحتجزين لقاءً إنسانيًا. وعلى الرغم من ذلك، أحيانًا ما يواجه مندوبو

12 P. Hernández et al., above note 8, p. 230

13 Pilar Hernández, David Engstrom, and David Gangsei, ‘Exploring the impact of trauma on therapists: vicarious resilience and related concepts in training’, in *Journal of Systemic Therapies,* Vol. 29, No. 1, 2010, p. 73.

اللجنة الدولية عند زياراتهم لأماكن الاحتجاز الرفض أو العدوانية. وقد يلقون شتائم مذلة وإيذاء شفهيًا ويصل الأمر حتى إلى تلقي تهديدات أو هجوم بالبول والغائط وغيرهما. ويكون من الصعب للغاية تحمل تلك الأوضاع أو التغلب عليها، حتى إنها قد تكون مصدرًا آخر للصدمة لدى العاملين في المجال الإنساني.

عانى مندوبون كثيرون في اللجنة الدولية من مثل تلك الأوضاع. ذات مرة، حضر المحتجزون بعد إطلاق سراحهم إلى المكتب لزيارة المندوبين. اعتذروا لهم وطالبوهم بتفهم موقفهم وأوضحوا أن ذلك كان السبيل الوحيد للتعبير عن غضبهم. فلم تكن الشتائم والسلوك العدائي أمرًا شخصيًا، حسب قولهم، بل مجرد وسيلة للتواصل. علقت إحدى الزميلات على هذا الأمر قائلة إن المحتجزين المفرج عنهم شكروها على سلوكها عندما شتموها، حيث إنها لم تتصرف حيال الموقف على نحو شخصي. بل أكدوا أن موقفها هذا ساعدهم على التكيف مع معاناتهم.

إن التصرفات العدائية ضد الآخرين أو ضد الذات إنما تعد في أغلب الأمر وسائل متطرفة للتواصل إبان الاحتجاز. وأشار الكاتب المنشق "أندريه سينيافسكي"، في مؤتمرمتميز عقد عام 1975، والذي أفرج عنه بعد قضاء سبع سنوات في معسكرات الاتحاد السوفيتي، إلى بعض "الأشكال المتطرفة للتواصل في ظروف العزلة."[14] فتحدث عن أفعال غير معتادة وغريبة أو ربما صادمة كانت تستخدم كوسائل للتواصل "حينما يجد الإنسان نفسه في وضع محاصر تمامًا." وعلق على هذا الأمر قائلًا: "حينما تعجز تمامًا عن استخدام اللغة أو التعبير عن حاجتك إلى التواصل، يصبح الاستمرار في الحياة أمرًا مستحيلًا."[15] في ظل أوضاع العزلة الشديدة، فإن الرفض أو اللا مبالاة، أو الأفعال المرتكبة في حق جسد الشخص ذاته أو ضده، أو الإضراب عن الطعام أو أفعال التشويه أو غيرها من أعمال العنف الموجه إلى الذات يجب أن تفهم على أنها "وسائل خاصة للتواصل."[16]

تعبر مثل تلك الأفعال عن احتجاج شديد عن طريق "تواصل سلبي تمامًا؛ انقطاع التواصل نهائيًا."[17] ولقد توصلت الدراسات الحديثة في علم الإنسان واللسانيات بشأن الأفعال الاتصالية المتطرفة في مثل تلك الأوضاع إلى نتائج مماثلة.[18] فالأفعال العدوانية، مثل الشتائم أو قذف الزائرين بالبراز أو البول أو طلاء جدران الزنازين بالبراز أو الإضراب عن الطعام أو عمليات تشويه الجسد، يجب إدراكها، أولًا، على أنها وسائل للتواصل. إنها تمثل شكلًا من أشكال الاعتراض أو تعبيرًا عن اليأس حينما لا تتوافر أي سبل أخرى للتواصل. إنها في واقع الأمر صرخة للمطالبة بالكرامة والتقدير.

14 André Siniavski, '« MOI» ET «EUX». Sur quelques formes extrêmes de la communication dans des conditions de solitude', in *Solitude et Communication, Rencontres Internationales de Genève – Tome XXV,* Éditions de la Baconnière, Neuchâtel, 1975, pp. 137–167.

15 *Idem.,* p. 138

16 *Ibid.,* p. 145.

17 *Ibid.,* p. 145.

18 Lionel Wee, 'Extreme communicative acts and the boosting of illocutionary force', in *Journal of Pragmatics*, Vol. 36, No. 12, December 2004, pp. 2161–2178; Lionel Wee, 'The hunger strike as a communicative act: intention without responsibility', *in Journal of Linguistic Anthropology*, Vol. 17, No. 1, June 2007, pp. 61–76.

ويجب على العاملين في المجال الإنساني ممن يزورون أماكن الاحتجاز أن يكونوا على استعداد للتعامل مع مثل تلك الأوضاع حتى يتجنبوا إظهار رد فعل شخصي أو رسمي أكثر مما ينبغي إزاء تلك الأفعال العدوانية. يكون من المهم استعادة التواصل الشفهي "مع" الشخص المحتجز: عوضًا عن مجرد التحدث "إلى" أو الاستماع "إلى" الشخص، فقد يكمن الحل في إقامة حوار، وإيجاد وسيلة للتقدير المتبادل باعتبار الزائر والسجين إنسانين يتمتعان بالقدرة والكرامة. قد يساعد هذا الحوار الزائر على فهم مغزى تلك الأفعال العدوانية وما يقف وراءها من أسباب وأهداف، ومن ثم، يبدأ التفكير على نحو مشترك في السبل الممكنة للتواصل مع الأشخاص أو السلطات المعنية.

يواجه الزائرون العاملون في المجال الإنساني عملية مشابهة عند حوارهم مع السلطات حول السبل الممكنة لتعزيز التواصل الإيجابي داخل أماكن الاحتجاز. ويمكن أن تتمثل الاستجابة الإنسانية للإضراب عن الطعام، على سبيل المثال، في عقد اجتماعات منتظمة، بين سلطات الاحتجاز والمحتجزين أو ممثليهم. وتعد مثل تلك الاجتماعات فرصًا سانحة لمناقشة القضايا المهمة وتبادل الأفكار بشأن الحلول الممكنة. قد يحقق تحسين سبل التواصل تأثيرًا كبيرًا على طبيعة العلاقة القائمة بين المحتجزين ومن يحتجزونهم، وهو ما يؤدي بدوره إلى الحد من أعمال العنف وتحسين الحالة الصحية للمحتجزين.

أشياء بسيطة وسيلة لإرساء الممارسات الإنسانية

إن للعنف والنزاعات المسلحة آثارها المدمرة على الأفراد والعائلات والمجتمعات والبشرية جمعاء. وتظهر النماذج المأخوذة من أماكن الاحتجاز أن الممارسات الإنسانية هي رعاية الفرد وتحويل الأماكن التي نزع عنها الطابع الإنساني إلى أماكن تتسم بالإنسانية. عادة ما يتطلب هذا العمل الكثير من التواضع وثقة عميقة بقدرتنا كبشر على نبذ العنف والانخراط في علاقات إيجابية بناءة مبنية على الاحترام، حتى في خضم النزاعات المُسلحة. ويتطلب قبول عدم إمكانية ملاحظة آثار الممارسات الإنسانية فورًا، حيث إنها قد تظهر بعد مرور عدة أعوام، عندما يتذكر المحتجزون السابقون فنجان القهوة أو صور الأزهار والحيوانات البرية أو منظر الغروب، أو قطرات العطر، والتي شكلت لحظات بسيطة من الإنسانية المشتركة – أشياء بسيطة أعادت لهم كرامتهم، لأنهم اعترف بهم كبشر.

قام الفيلسوف "جوناثان غلوفر"، في كتابه الرائع "هويمانيتي" (الإنسانية) بتحليل جوانب الممارسات غير الإنسانية.[19] ولم يعثر في رحلته سوى على بعض النماذج القليلة من الإنسانية. ويبدو أن هناك عددًا ضئيلًا من الناس هم من يمتلكون الشجاعة والجرأة وإبداء "الاستجابة الإنسانية"، التي هي الاحترام والتعاطف.[20] بالنسبة للسجناء في "ماوتهاوزن" أو اليهود في برلين إبان الاحتلال النازي لأوروبا، "فقد كان مجرد رؤية وجه ودود يصنع الفارق".[21]

19 Jonathan Glover, *Humanity: A Moral History of the Twentieth Century*, Pimlico, London, 1999.

20 *Idem.,* pp. 22–23.

21 *Ibid.,* p. 383.

وقد سرد "غلوفر" قصة للكاتب والفيلسوف "جان أميري"، الذي تذكر السجائر. فقد قام أحد الجنود بتمرير سيجارة مشتعلة إليه عبر قضبان الزنزانة بعد أن عُذِّبَ في "بريندونك". وقام بدوره لاحقًا في "آوشفيتز - مونوفيتز" بتدخين آخر سيجارة مناصفة مع "هيربرت كاب"، الذي كان جنديًا مُعاقًا من "دانزيغ". وتذكر "أميري" أفرادًا قلائل آخرين قاموا ببوادر إنسانية. وكان من بينهم "ويلي شنايدر"، وهو عامل كاثوليكي من "إيسن"، دعاه باسمه الشخصي الذي كان قد نسيه بالفعل وأعطاه خبزًا.[22] ولكن "غلوفر" يلاحظ أن "جان أميري" لم يفته أن يشير إلى ندرة تلك البوادر الإنسانية. لقد أوضح "أميري" في كتابه أن قيمة هؤلاء الرفقاء الشجعان لم تكن كافية عندما يغيبون عن ناظريه، "ويتوهون وسط أناسهم".[23]، ولا يمكن للأعمال الإنسانية الصادرة عن القليل من الناس أن توازن بالنسبة إليه ما لا يحصى من الأعمال التي قام بها الكثير من الناس وهي أعمال المؤازرة والتوافق والتعاون. وأعرب "أميري" عن أسباب استيائه واستحالة تجاوزه لما حدث، فقد تأثر بشدة من التعذيب ومعسكرات الإبادة الجماعية. ولا يرى أنه "أصيب بالصدمة"، بل كتب قائلًا: إنه "جرد من إنسانيته"[24] وذكرت "ماغدة هولاندر-لافون" في روايتها قدرًا يسيرًا من البوادر الإنسانية التي برزت في خضم الرعب والقسوة التي وقعت في "آوشفيتز".[25] حيث قدم لها شخص ما أثناء رحلتهم في قطار الماشية، شريحة من السجق اقتسمتها مع والدتها وشقيقتها؛[26] وقد أنقذ حياتها رفاق لا تعرفهم حين قدموا لها بضع قطرات من المياه حينما فقدت وعيها من العطش؛[27] وأعطاها الحارس القبيح ذو الصوت الأجش زوجين من النعال واعتنى بها في العمل؛[28] وأسمعها أحد رفاقها كلامًا رقيقًا عن الأخوة والصداقة والشجاعة فساعدها على الاستمرار في الحياة؛[29] وأعطتها امرأة عجوز تحتضر أربع كسرات من الخبز لتتمكن من النجاة وتشهد على ما كان يحدث في "آوشفيتز".[30] وقد ساعدت تلك الأشياء البسيطة "ماغدة هولاندر-لافون" على تخطي كل المعاناة والاستمرار في طريقها نحو استعادة إنسانيتها.

هناك عدة روايات سردها الناجون من أحداث عنف خطيرة. فلكل إنسان تجربته الفريدة والتي لا يمكن استبدالها، وليس هناك بالمثل حل جاهز للرعاية الإنسانية. إن طلب بضع قطرات من العطر حدث عفويًا في مكان ما أثناء لقاء بين شخصين. وقد ساعدت تلك القطرات المعتقل على الشعور بأنه إنسان. والسائل ذاته قد لا يحمل معنى أو قد يشكل إهانة في سياق آخر. يكتشف الأفراد العاملون في المجال الإنساني طريقتهم الخاصة في الرعاية الإنسانية. حيث يعملون بمقتضى صفاتهم الإنسانية وهويتهم وتاريخهم وقدراتهم وكذلك مواطن

22 *Ibid.,* p. 383.

23 Jean Améry, *Par-delà le crime et le châtiment – Essai pour surmonter l'insurmontable,* Actes Sud, Arles, 1995 (translated from German), p. 159.

24 *Idem.,* pp. 172 and 208

25 Magda Hollander-Lafon, *Quatre petits bouts de pain – des ténèbres à la joie,* Albin-Michel, Paris, 2012.

26 *Ibem.,* p. 90.

27 *Ibid.,* p. 34.

28 *Ibid.,* p. 45.

29 *Ibid.,* p. 51.

30 *Ibid.*, p. 73.

ضعفهم. ويتعرض العاملون في المجال الإنساني دائمًا وأبدًا لمواجهة مواطن العجز وحدود طاقة ممارساتهم، وخصوصًا في خضم النزاعات المسلحة وحالات العنف الأخرى. ولكن العديد منهم على دراية، بحكم تجربتهم، بأن قدرتهم على الرعاية والعمل من خلال مبدأي الاحترام والعطف، بالإضافة إلى إبداعهم، قد يجعل من مقابلاتهم مع المتضررين، سواء من المحتجزين أو المدنيين أو الجرحى والمرضى، مشاركة فعلية تتخللها لحظات من المشاركة الوجدانية الإنسانية. وتعتبر هذه العلاقة من الرعاية الإنسانية لب العمل الإنساني.